

إسلامه

يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذى يعمله الرجل اليوم وينسأه غداً، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت إلى عقباه، أو يلتفت إلى عقباه ولا يتوقع لها أثراً يغير فى مجرى حياته. فسبب واحد لعمل من هذه الأعمال كاف ولا حاجة بعده إلى استقصاء.

لكن العمل الذى تتحول به حياة الإنسان تحولا لا حاسماً لن يرجع إلى سبب واحد، ولن نستغنى فى تفسيره عن عدة أسباب، بعضها حديث وبعضها قديم، ومنها الظاهر الطبيع والخفى المستعصى، وقد يجهل صاحبها بعض هذه الأسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهين القريب.

فالرجل الذى يغير موطنه أو معيشته أو زيه لا يفعل ذلك عفو الساعة ولا تلبية لاقتراح يوحى فى مجلس فراغ. وقد يتوهم هو أنه سمع الاقتراح قلباه، وأنه لم يكن ليليه لولا ما سمع فى تلك اللحظة العارضة، فهاجر هله وترك موطنه وغير صناعته من أجل كلمة. . . وإنك سائلة ساعتئذ: "إنك قد هاجرت أهلك وتركت موطنك وغيرت معيشتك لأنك لبيت اقتراحاً، فهل تعلم لم لبيت الاقتراح؟" فإذا سألته ذلك السؤال رددته إلى نفسه، فعلم أن الأسباب الصحيحة وراء ذلك، وأنه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم. بل سمع الاقتراح ولباه لأنه كان قبل ذلك مستعداً للتحول ماضياً فى طريقه. ولو سمعه مائة معه لم يكونوا مستعدين مثله لما عملوا به ولا التفتوا إليه.

وأيّن تغيير المعيشة والموطن والزى من تغيير العقيدة الدينية، إننا إذا استصغرنا السبب الواحد فى تفسير تلك التغيرات فهو لا وراء أصغر من ذلك جداً فى تفسير التحول الحاسم إلى دين جديد.

لأن الإنسان إذا غير معيشته فإنما يغير صناعة، وإذا غير مونه فإنما يغير، سمناً^(١) يقون على كساء، ولكنه إذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه

(١) السم: الهيئة.

واستبدل به كونًا آخر، وقد غير ماضيه وماضى أهله، وغير حاضره وحاضر أهله، وغير مصيره في الدنيا ومصيره بعد الموت، وغير آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس، ومنها مآلف وأواصر ومحاب ومكاره متوشجات الأصول إلى ما وراء الآباء والأجداد.

فسبب واحد لا يغير هذا كله دفعة واحدة.

ولابد لتمام هذا التغيير من أسباب سابقة وأسباب مهيئة، وأسباب موقوفة هي أظهر تلك الأسباب، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيراً لذلك الحدث العظيم في العالم، وهل يتغير الإنسان هكذا إلا وقد أحاط بالعالم في نظره حدث عظيم؟

ونحن قد أشرنا فيما تقدم إلى ندم عمر لشكايه المراتين عارضهما في الإسلام وإلى ما كان لندمه من كسر حديثه واستلال ضغنه، وترويض عناده، والتقريب بينه وبين الخشوع الديني والهداية الإسلامية. فهل تقف عند هذا الندم وكفى؟ وهل انتهينا به إلى حيث يستقر الوقوف؟

ومما لا شك فيه أن عمر كان مقترباً من الإسلام يوم رثى لأم عبد الله بنت حنتمة تركها تنطلق إلى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة. وكانت هي على صواب طمعت في إسلامه ورجالها يائسون منه. فقد سألها عامر بن ربيعة مستغرباً مستبعداً: كأنك قد طمعت في إسلام عمر؟ قالت: نعم؟ قال: إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب!

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة، إذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانب الرقة وجانب الغضب من قلب الرجل في خطفة عين.. أليست حياتها كلها من قديم الزمن منوطة بذلك الغضب كيف تتلطف في تحويله، وبتلك الرقة وكيف تتلطف في ابتعاثها من مكمنها؟ ول تحديها عنها القوة وهي ما نفذت إلى نفس الرجل قط إلا من وراء القوة؟

فعمر كان مقترباً من الإسلام يوم رثى للمرأة المهاجرة ودعا لها بصحبة الله، وكان على تمام الإسلام يوم رأى الدم على وجه أخته ورأى زوجها منطرحاً تحته لا يقوى على دفاع.

ولكنه كما قلنا سبب من أسباب، وأنه هو السبب العارض الذى يومئ^(١) إلى السبب العميق: سبب عارض هو الأسف لشكاية الضعيف، وسبب عميق هو الرحمة التى تجمل بذى نخوة كريم. وليس الإنسان كله ندماً ورحمة وإن طال ندمه وطالت رحمته. فليس كل ما احتوى رحمته بمحتويه إلى زمن طويل.

وقد تعددت الروايات فى إسلام عمر واختلف بعض هذه الروايات فى اللفظ واتفق فى المغزى، وجعل أناس ينظرون فيها كأنما الصحيح منها لا يكون إلا رواية واحدة وسائرهما باطل لا يشتمل على حقيقة. فلم تكون صحيحاً كلها؟ ولم لا تكون أسباباً متعددة فى أوقات مختلفات؟ فمن المستطاع المعقول أن تسقط منها قليلاً من الحشو هنا ثم نخلص منها إلى حملة أسباب لا تعارض بينها فى الجوهر، وقد يعزز بعضها بعضاً فى نسق السيرة وفى لباب النتيجة.

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: " كنت للإسلام مباعدًا، وكنت صاحب خمر من الجاهلية أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس فيه رجال من قريش.. فخرجت أريد جلسائى أولئك فلم أجد منهم أحداً. فقلت: لو أننى جئت فلانا الخمار!... وخرجت فجئته فلم أجده، قلت: لو أننى جئت الكعبة فطفت بها سبعاً وسبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام، واتخذ مكانه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليمانى. فقلت

(١) يومئ: يشير.

حين رأيته: والله لو أنى سمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! وقام بنفسى أننى لو دنوت أسمع منه لأروعه^(١). فجئت من قبل الحجر^(٢). فدخلت تحت ثيابها ما بين وبينه إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الإسلام".

.. إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الإسلام".

وروى ابن إسحق فى سبب إسلامه كما نقلنا عنه فى كتابنا "عبقريه محمد": "أن عمر خرج يوماً متوحشاً بشيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه.. قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر أبى قحافة الصديق وعلى بن أبى طالب فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم.. فلقيه نعيم ابن عبد الله فقال له: ابن تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابى^(٣) الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسبب آلتها فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم، قال وأى أهل بينى؟ قال: ختنك^(٤) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعاً محمداً على دينه. فعليك بهما.

قال.. فرجع عمر عامداً إلى أخته وختته، وعندهما خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت. وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت

(١) لأروعه: لأفزعته.

(٢) الحجر: يكسر الحاء حطيم مكة، مدار البيت من جهة الشمال.

(٣) الصابى: الخارج من دين إلى دين.

(٤) ختنك: الختن: الصهر، زوج لبنت أو الأخت.

فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما. فلما دخل قال: ما هذه الهيئمة^(١) التي سمعت! قال له: ما سمعت شيئا! قال: بلى والله. لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها. فلما فعل ذلك قالت له أخته. نعم. قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد.. وقرأ سورة طه، فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خطبك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب. فإله الله يا عمر! فقال له عند ذلك عمر: دلنى يا خباب على محمد وحتى آتبه فأسلم. فقال له خباب: هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوحشه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل^(٢) الباب فرآه متوحشاً بالسيف، فرجع إلى رسول الله وهو فزع. فقال: يا رسول الله! عذا عمر بن الخطاب متوحشاً بالسيف. فقال حمزة بن عبد المطلب: نأذن له، فإن كان يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه. فقال رسول الله أئذن له.. ونهض حتى لقيه بالحجرة فأخذ يحجزته^(٣) أو بمجمع رداءه ثم جبهه جبذة^(٤) شديدة وقال: ما جاء بك يا ابن عبد المطلب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة! فقال عمر: يا رسول الله! جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله!..".

(١) الهيئمة: الكلام الخفى غير الواضح. (٢) الخلل: الفرجة بين الشيتين.

(٣) يحجزته: الحجة موضع شد الأزار من الوسط. (٤) جبذ: جذب.

(٥) القارعة: الداهية.

هاتان الروايتان هما أجمع الروايات للأسباب " المباشرة " التى قربت بين عمر والإسلام، وتتفرع منها روايات متنوعة يزيد بعضها تارة أن عمر قد أوفد لقتل النبى من قبل قريش، ويزيد بعضها تارة أخرى آيات من القرآن الكريم قرأها عمر فى بيت أخته غير الآيات التى تقدمت الإشارة إليها فى سورة طه. وأشبها بالتصديق أنه لم اطلع على الصحيفة قرأ فيها اسم "الرحمن الرحيم" فذعر وألقاها، ثم رجع إلى نفسه فتناولها وجعل كلما مر باسم من أسماء الله ذعر. فلما بلغ " . . وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين " قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وهذه على اختلافها روايات متقاربة يبدو أنها قصة واحدة شطرين وزيدت عليها الحواشى والأطراف، فاختلف فى ألفاظها ومواعيدها واتفقت فى جوهرها ومدلولها، لأنها تمس نفس عمر من الناحية التى حى أشبه أن تهديه إلى طريق جديد.

وهى كلما أسلفنا - تجمع لنا الأسباب " المباشرة " التى اقترنت بإسلام عمر، ولا تغنيانا عن الأسباب الأخرى التى هى أساس هذه الأسباب ومرجعها، ولأجلها كان خليقًا أن تأخذ بلاغة القرآن، وأن تميل به الرحمة إلى الإيمان.

فقد كان مهياً للإسلام لا محالة، وكانت محافاته للإسلام خليقة أن تنتهى بعد قليل، وألا تطول إلا ريثما تعن المناسبة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير.

فلم يكن بين عمر والإسلام فى بداية الأمر إلا باب واحد للعداء.

وكل ما عدا ذلك من الأبواب فقد كان مفتوحًا بينه وبين هذا الدين الجديد، ما هو إلا أن يراه بالعين حتى يندقع فيه.

كان باب العداء بينه وبين الإسلام أنه رجل قوى غيور عزيز فى قومه .
فإذا رجل يخرج عليهم فيفرق - كما قال - أمر قریش ويسفه أحلامها ويعيب
دينها ويسبب آلهتها، فلا جرم يثور ويغضب وينقم، ولا عجب أن يذود عن
ذماره ويرحض^(١) المعابة عن شرف آبائه، ويرى أن غير عاد ولا باغ، وأن
البغى والعدوان إنما يجيئان من قبل ذلك الرجل الخارج على قومه، حتى يتبين
له بالحق يصدع به أن الذى هو فيه هو البغى والعدوان.

ذلك باب العداء الوحيد الذى كان بين عمر والإسرم، وهو باب لا
يطول مدخله فى نفس طبعته على العدل والإنصاف.

فما من سبب يصل بين الجاهلى الشريف وهذا الدين إلا كان موصولا
لا بنفس عمر أوثق صلة، وما عملنا من سبب للإسلام إلا كانت له عقدة فى
نفس عمر وثيقة القرار.

فربما أسلم أناس لأنهم أخذوا ببلاغة القرآن، وأسلم أناس لأنهم أخذوا
ببلاغة القرآن، وأسلم أناس لأنهم كرهوا المنكر الذى كان يشيع فى الجاهلية،
أو لأنهم ورثوا النزعة الدينية والخلايق المستقيمة، أو لأنهم جبلوا على
روحانية تصل بينهم وبين عالم الغيب وحظيرة الأسرار، أو لأنهم قد عرضت
لهم عارضه موقوته حركت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب.

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم.

وكل أولئك لم يكن عمر فيه بالوسط المكرر، بل كان فيه العلم المترفع
المضى بين الأعلام.

كان عمر بليغاً حسن النقد للبلاغة، هواه منها الصدق والطبع وجمال
التفصيل، فكان يطرب لقول زهير:

(١) رحض الثوب: غسله ويرحض المعابة عن شرف آبائه: يزيلها.

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء^(١)

ويقول كلما أنشدته معجباً: ما أحسن ما أقسم! وسماء شاعر الشعراء
لأنه لا يعاظم^(٢) بين القوافي ولا يتبع حواشى الكلام.

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر فيقول لجليسه: "الآن
اقرأ يا عبد الله".

وجاء يوماً ما بعض آل هرم بن سنان ممدوح زهير فقال عمر: أما وإن
زهيراً كان يقول فيكم فحسب، فقليل له: كذلك كنا نعطيه فنجزل. فعاد عمر
يقول: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.

وجاه وفد من غطفان فسألهم من الذى يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ربة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا: نابغة بنى ذبيان. فسألهم: ومن الذى يقول: أتيتك

أتيتك عاربا خلقاً ثيابى على وجل تظن بى الظنون^(٣)

فألقيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا: هو النابغة. فقال: هو أشعر شعرائكم.

وطالما أعجب بقول عبدة بن الطيب:

والمرء سماع لأنر ليس يدركه والعيش شح واشفاق وتأميل

وينشده فيقول: على هذا بنيت الدنيا!..

وندر بين أئمة الدين من غاض فى أدب قومه غوصه، ووعى من
أشعارهم وطرفهم مثل ما وعاه. قال الأصمعى: "ما قطع عمر أمراً إلا تمثل

(١) يريد الشاعر أن مقاطع الحقوق ثلاثة، يمين حكومة أو بينه.

(٢) يعاظم: عاظم بالكلام عقدة وصعبه واستخدم حواشيه وغريبه.

(٣) الثوب الخلق: البالى.

فيه بيت من الشعر". ونحن نرجع إلى الشعر الذي تمثل به فتراه في أحسن موقع وأصدق شاهد، ونلمح من قليل أخباره في خلوته أن الأدب كان جانباً من جوانبه التي ترق فيه حاشيته، ويأنس فيه إلى قلبه، ويرجع فيه إلى قطرته جاء عبد الرحمن بن عوف إلى بابه مستقليا على مزحفة له وإحدى رجله على الأخرى وهو ينشد بصوت عال:

وكيف ثوائي^(١) بالمدينة بعدما قضى وطرا منها جميل بن معمر

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له: يا أبا محمد: إنا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس. ولم يقصر إعجابه بالشعراء على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية، بل نظر في فئهم وفاضل بينهم في بلاغتهم، ففضل امرأ القيس لأنه "سابقهم، خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر"^(٢)

ونوارده مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة وحفظة لأجمل ما يحفظ بين أهل عصره، كما تدل على ذلك خطبة ورسائله وشواهد وأمثاله.

وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح. فقد نسبت إليه أبيات وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول: لو نظمت الشعر لقتلته في رثاء أخى. ولكن الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ ويرويه، وأنه نشأ في قوم يحبون مثل ما أحب ويعجبون بمثل ما أعجبه، ومنهم أبوه الذي نظم الشعر في أكثر من مناسبة وروى عنه أنه قال لما توعده أبو عمرو بن أمية:

أيوعدني أبو عمرو ودوني رجالا لا ينهها الوعيد^(٣)

(١) ثوائي: إقامتى.

(٢) خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصبح بصر: استنبط عين الشعر وثق طريق المعانى وأتى بالشوارد الحسان. راجع باب "ثقافته".

(٣) لا ينهها الوعيد: أى لا يهابون التهديد.

ربيع المعدمين وكل جار إذا نزلت بهم ستة كشود^(١)
 هم الرأس المقدم من قریش وعند يوتهم تلقى الوفود
 فكيف أخاف أو أخشى عدوا ونصرهم إذا أدعو عتيد
 فلست بعادل عنهم سواهم طوال الدهر ما اختلف الحديد^(٢)
 إلى آخر ما نسب إليه.

فأقرب شيء إلى الواقع - وإلى المتوقع - أن يؤخذ ببلاغة القرآن رجل
 نشأ هذه النشأة وأحب الكلام البليغ هذا الحب، وأن يخضع لآياته ويعجب
 لتفصيله فيفتح من قلبه مسالك الإصغاء.

وكان عمر مستقيم الطبع مفطوراً على الإنصاف، فلم يكن رجل مثله
 ليستريح إلى فساد الجاهلية أو يخفى عليه فسادها إذا نبه إليه وهدى إلى ما هو
 خير منه.

وكانت النزعة الدينية وراثية في أسرته على ما يظهر من مبادرة أخته
 فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد إلى الإسلام، وكان له قبل الإسلام رجل من
 عمومته يقدح في الوثنية ويبحث عن الحق في النصرانية واليهودية، ويبتلى
 أهله بالخلاف ويبتلون بالإيذاء والحبس والإرهاق، ونعنى بن عمرو بن نفيل.

وعمر نفسه.. ألم يقل لنا أنه يش ليلة من السمر ومن الخمر فذهب
 يطوف بالبیت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تنوب عنه مناب
 المحبوب من الشهوات؟ ألم يكن في الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلة من كل
 أسبوع؟ بل لعل صلابه الخطأ أبيه لم تكن في صميمها شسناً مناقضاً لعنصر
 الدين والإيمان. فإن هؤلاء الصلاب الشداد في المحافظة على العرف هم
 أولئك المؤمنون^(٣) الذين لا يطيقون المساس بعقائدهم إذا آمنوا بدين.

(١) سنة كشود: شديدة مظلمة.

(٢) الحديد: الليل والنهار، يعنى أنه لا يعدل بهم قوماً آخرين مهما تعاقب الزمان.

(٣) المتزمت: الوقود المتشدد في دينه.

وزاد عمر على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فراسة وزكاة^(١) وكان يستطلع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيب ويصير على البعد ويصير على البعد كما سلف في حديث سارية حين ناداه يا سارية الجبل! يا سارية الجبل. وبينها مسيرة أيام.

وكانت العوارض تمر به فتعطفه إلى الإسلام تارة من طريق الرحمة وتارة من طريق العدل والنخوة، فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياه. إذا ليس أبغض إلى الرجل الآنئ المنصف من أن يحارب أناسا لا يحاربونه، ويلج في إيذاء قوم لا يقدرّون على أذاه.

فإذا تفتحت هذه الأبواب جميعاً بين عمر والإسلام فباب واحد موصل لن يحجبه طويلاً عن هذا الدين، ولن يحجب هذا الدين طويلاً عنه. وقد تفتحت في يوم من الأيام.

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب، وأسلم الجاهلي الشريف كما كان ينبغي أن يسلم، كما كان يقيناً سيسلم في مناسبة من المناسبات.

فإذا العالم الإنساني قد تفتحت فيه صفحة جديدة:

صفحة يقرأ فيها القارئ قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التي تسيطر على هذا الوجود: كان قدرة تلبس الضعيف فيقوى، وتلبس القوى فتسمى قوته وتجري به في وجهته، وكان يداً خالقه حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة في التية فإذا هي صرح له أساس وأركان، وفيه مأوى للضماير والأذهان. جاهلي سبه الإسلام فكسبه العالم الإنساني كله إلى آخر الزمان. . ونفس ضائعة ردت إلى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر، واطلع منها على ما

(١) الزكاة: الفطنة والفراسة.

كان يجهل، ونفع بها أمته وأما لا تحصى، وصنع بها الإسلام أعظم وأفخم قدرة ما تصنعه بناء وإنشاء، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء.

ونظرت الأمم قرأت كيف تلعو النفس الإنسانية حتى يحار فيها الإنسان وهو ريشة في مهب النوازع والأشجان^(١).

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروى ضطؤه إلا ليعدل ويعرف الحق، وكأنه لا يصحوا ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق، وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس، وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم، وهو وحدة أقوى في المطالبة بهما من ألف غريم.

لقد كان هذا الرجل المجيد ييغض أن يظلم غيره أشد من بغضه أن يظلمه غيره. وهذه منزلة في الأنفة تطاولها المنازل، لأنها منزلة الأبطال الذين يسمون على أنفسهم ولهم أنفس أسمى من عامة الأبطال.

وإننا لنعلم كم حز في في قلبه الكريم أن يضرب بريئاً على دين الحق كلما رجعنا إلى أيامه الأولى بعد الإسلام، وهى أيام لا تنسى في تاريخ البطولة والأبطال.

فما شغله أمر بعد إعلان الدين إلا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناساً في سبيل ذلك الدين.

ثار إلى الناس يضربونه ويضربهم، فقام خاله يسأل: ما هذه الجماعة؟ قيل له ابن ابن الخطب قد صبا.. فقام على الحجر فنادى: إلا أننى قد أجرت^(٢) ابن أختي: فأنكشف الناس عنه. فكان لا يزال يرى مسلماً يضرب

(١) الأشجان "جمع شجن" والشجن: ألهم والحزن والحاجة الشاغلة.

(٢) أجاره: أى أدخله فى حماه ورعايته وجواره.

أحد، وثقل عليه ألا يصيبه المسلمین، فذهب إلى خاله وقد اجتمع الناس فی الحجر وناداه: اسمع!.. جوارك مردود عليك^(١). قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدری: لا تفعل یا ابن أختی. فأصر على رد جواره، وطاب له بعد أنه اقتص من نفسه للأبرياء الذين ضربهم وهو یجهل دينهم، فلا تمضی تلك الضربات بغير قصاص، وإن كفر عنها بالتوبة وإعزاز الدين الذي آذاهم من أجله.

وأبى من اللحظة الأولى إلا أن يواجه الخطر الأكبر فی سبيل دينه، وإلا أن يقبض على الثور من قرنيه كما يقول الغربيون فی أمثالهم، وأن يتحدى قريشاً بحقه منذ آمن بأمهم على باطل. فسأل أناساً: أى أهل مكة أنقل للحديث؟ قيل له حميل بن معمر الجمحي.. فذهب إليه فصرح له بإسلامه!.. ولم يكذب الرجل الظن به، فما هو إلا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه إلى أ، دية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على باب المسجد: يا معشر قريش! ألا أن عمر بن الخطاب قد صبأ.. وعمر يقول من خلفه: كذب! ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، ثم تشبب المعركة بين هذا الرجل المفرد وبينهم فيشب على أذناهم منه وأجراهم عليه - عتبة بن ربيعة - فيصرعه ويبرك عليه يضربه ويدخل أصبعيه فى عينيه لأنهما عمياوان عن الحق لا يبصران النور! ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهم أحداً " إلا أخذ شريف من دنا منه " حتى أحجموا عنه وركدت الشمس وفتّر من طول الصراع، فجلس وهم قائلون على رأسه يثلبونه^(٢) وهو يقول لهم: " افعلوا ما بدا لكم. فو الله كنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم ". افعلوا ما بدا لكم! وهذا ما أراد. فما يستريح وجدانه الحى أن يضرب مسلماً لإسلامه ولم يضرب كافراً لكفره، وما شعر أنه وفى لله دينه وقد

(١) أى: أعفى من حمايتك.

(٢) يثلبونه: يشتمونه ويعيرونه.

ضرب ولم يضرب أذى أناماً ولم يؤذ أحد، وما تهدأ حاسة العدل فيه - وقد كانت كأنها من حواس بدنه - إلا أن يحس القصاص في نفسه كما أحسن المضربون بالأمس عدوانه في أنفسهم.

وراح يسأل النبي: يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟ فقال عليه السلام: بلى! والذي نفسى بيده إنكم على الحق إن متتم وإن حييتم. قال: فقيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن!

"فما لبث النبي أن خرج في صفين أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة، ولهما كديد^(١) كأنه كديد الطحين، فدخلوا المسجد وقريش وتنظر تعلو خا كآبة فلا جرق سليط^(٢) منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان. . . وسملء النبي يومئذ الفاروق.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: "ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه واتنضى في يده أسهماً واختصر عزته^(٣) ومضى قبل الكعبة والملا من قريش بفنائها، فطاف في البيت سبعا متمكناً، ثم اتى المقام فصلى، ثم وقف على الحلق^(٤) واحدة واحدة يقول لهم: شاهدت^(٥) الوجوه! لا يرغن الله إلا هذه المعاطس^(٦)! من أراد أن يثكل أمه أو يوتم ولدة أو يرمل زوجته^(٧) فليلقنى وراء هذا الوادى. . .".

لقد كان فى تحديه هذا لقريش عدتان: شجاعته وعدله. . . فما كانت شجاعته فى هذا التحدى بأظهر من عدله ولا كان عدله فيه أظهر من

(١) كديد: التراب الناعم. (٢) السليط: البذى اللسان.

(٣) العترة: عصا لها رج كالرمح الصغير، واختصرها، اعتمد عليها فى مشبه.

(٤) الحلق جمع حلقة" والحلقة: القوم يجتمعون مستديرين.

(٥) شاهدت الوجوه: قبحت. (٦) المعاطس "جمع المعطس" والمعطس: الأنف.

(٧) أى يجعل أمه تشكل، أو ولده أو زوجته أرملة: يعنى "أن أقتله".

شجاعته . إذ الشجاع الحق مطبوع على الأنفة من الظلم لأنه شديد الإحساس
بذله ، ومن كان شديد العادل الشجاع شئء كاستطالة الظالم وظنه أن المظلوم
لا يستطيل عليه ، فذلك هو التحدى الذى يثير الشجاعة ويثير النعمة على
الظلم أو يثير حب العدل فى وقت واحد ، وإن الموت لأهون من الصبر على
هذا التحدى المرذول وهذا النصف القبيح . وما الشجاعة إن لم تكن هى الجرأة
على الموت كلما وجب الاجترأ عليه؟ وأى امراء أولى بالجرأة من الشجاع
الذى يعلم أن الحق بين يديه؟ ألسنا على الحق إن حيننا وإن متنا؟ فعلى الحق
إذن فلنمت ولا نعيش على الباطل ، فالباطل كرهه والجبن كرهه ، وذلك ملتقى
العدل والشجاعة فى قلب العادل الشجاع .

ونهج عمر طريقه فى الإسلام كما نهج طريقه إلى الإسلام : كلاهما
طريق صراحة وقوة لا يطبق اللف والتنطع ولا يحفل بغير الحد الذى لا عبث
فيه . . فلا وهن ولا رباء ، ولا حذقة ولا ادعاء وما شئت يعد ذلك من
إسلام صريح قويم فهو إسلام عمر بن الخطاب .

قال فى بعض عظاته : ولا تنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته ،
ولكن انظروا من إذا حدث صدق ، وإذا ائتمن أدى ، وإذا أشقى - أى هم
بالمعصية - ورع " .

وقال فى هذا المعنى : " لا يعجبكم من الرجل طنطنته ، ولكن . . من
أدى الأمانة إلى من ائتمنه ، وسلم الناس من يده ولسانه " .

وقال فى عمل الدنيا والآخرة : " ليس خيركم من عمل للآخرة وترك
الدنيا ، أو عمل للدنيا وترك الآخرة ، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن
هذه . وإنما الحرج فى الرغبة فيما تجاوز الحاجة على حد الكفاية . . "

ولم يكن أبغض إليه ممن يتوانى ليقال إنه متوكل على الله ، أو يتراءى
بالضعف ليقال إنه ناسك ، أو يفترط^(١) فى العبادة ليقال أنه زاهد فى الدنيا .

(١) أفرط إفراطاً : أسرف وتجاوز الحد ، ويعكس التفريط .

فكان يقوم: "إن المتوكل الذى حبة فى الأرض ويتوكل على الله" ..
و"لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول ارزقنى . وقد علمتم أن السماء لا
تمطر ذهبًا ولا فضة، وأن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض" .

وكان يضرب من يماوت ويستكين ليظهر التخشع فى الدين، فنظر إلى
رجل مظهر للنسك يماوت فخفقه بالدرة وقال: "لا تمت علينا ديناً أمانك
الله"، وأشاروا إلى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له: كل يا دهر! كل
يا دهر! .. ينهائهم عن الصوم الذى يعوقه عن معاشه ولا يوجهه عليه الدين .

وكان كلما رأى شاباً رأسه صاح به: "ارفع رأسك فإن الخشوع على ما
فى القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما فى قلب فإنما أظهر للناس نفاقاً
إلى نفاق" .

وإنما كان يعجبه "الشباب الناسك نظيف الثوب طيب الرائحة"، ويرى
المسلمين بخير ما علموا أبناءهم الرمى والعموم والفروسية، "فأنتم بخير" كما
قال "ما نزوتهم^(١) على ظهور الخيل" .

دين الرجل القوى الشجاع الذى ينتصر بدينه فى ميدان الحياة، وليس
يدين الواهن لهزوم الذى تركته الدنيا فأوهم نفسه أنه هو تاركها ليقبل على
الآخرة .

وكانت شجاعته فى دينه أندر الشجاعات فى النفوس الأدمية .. لأنها
الشجاعة التى يواجه بها تهمة الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع .
فإن كثيراً من الناس ليعدون من الصواب الذى يظهر هو بمظهر الخوف ليقال
إنهم شجعان، وإنهم فى عدولهم عنه لمن الجبناء المستبدين للشئاء، ولم يكن
عمر يدل عن صواب فهمه ولو قيل فى شجاعته ما قيل، وتلك أشجع
الشجاعات .

(١) النزو: الوثوب .

فشا طاعون عمواس وعمر فى طريقه إلى الشام، فلقبه أبو عبيدة وأصحابه عند تبوت وأخبروه خير الطاعون، فاستشار المهاجرين والأنصار فاختلفوا بين ناصح بالمضى وناصح بالقول: ناصح بالمضى فى طريقه يقول إنه خرج لأمر ولا يرى له أن يرجع عنه؛ وناصح بالقول يقول إنه اصطحب "بقية الناس وأصحاب رسول الله ولا يرى أن يقدمهم على وباء" . . ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم تختلف عليه رجلان وأشاروا جميعاً بالرجوع. فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ قال عمر: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطته وادياً له عدوتان^(١) إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدية رعيتها بقدر الله؟ . . وما رام^(٢) مكانه حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف فحسم الخلاف برأى النبى فى الخروج من أرض الطاعون والقُدوم إليها حيث قال عليه السلام: "إذا سمعتم به بأرض تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها" .

فكان إيمانه بصراً لا يهجم على عمياء، ولا يستلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيلة والأخذ بالأسباب، وكانت نصيحته العامة للمسلمين فى أمر الطاعون كرايه الخاص فى أمر نفسه وصحبه، فأمرهم بالاستفاذ ما وجدوا له سيلاً وكتب إلى أبى عبيدة: "إنك قد أنزلت الناس أرضاً غمقة - أى وخيمة - فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة^(٣)" وهو أحوط ما يحتاط به أمير عالم فى هذه الأيام.

كذلك لم يكن يؤمن بشئ ينفع أو يضر غير ما عرفت أسباب نفعه وضرره فكان ينظر إلى الحجر الأسود فيقول كلماً أسلمته^(٤): إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك

(١) العدو: المكان الواقع. (٢) رام: بريح وترك.

(٣) النزهة: المرتفعة. (٤) استلم الحجر الأسود أى لمسه أما بالتقبيل أو باليد.

وسمع أن الناس يأتون الشجرة التي تابع رسول الله تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها ويتبركون بها، فأوعدهم^(١) وأمرهم بها أن تقطع، مخافة أن تسرى إلى الإسلام من هذه المناسك وأشباهها لوثة^(٢) من الوثنية والتوكل على الجماد.

وربما التبس الأمر من نواذر عمر في التقشف واجتتاب المنع والمناعم فحسبت فرائض يوجبها ويجرى فيها على طريقة أولئك النساك المتخشعين الذين كان ينهاتهم أن يميئوا الدين ويهزأ بهم كلما تنطعوا وأوجبوا ما لا يجب على المؤمنين.

فلا يلتبس الأمر هذا الملتبس، فهو واضح بين التفرقة من سيرته ومن الأحاديث التي صبحت تلك النواذر، ففسرتها ودلت على الغرض منها.

فعمر كان مسلماً كان خليفة للمسلمين، وفرق بين محاسبة المسلم نفسه وهو مسئول عنها دون غيرها، وبين محاسبة الخليفة نفسه حتى يقع الشك في عمله وينزه يده وأيدي أهله عما ليس لهم بحق بها سلطان الحكم أو بيت المال، ثم يفى لذكرى صاحبه الذي خلفه على المسلمين، فلا يعيش في مكانه خيراً من عيشته، ولا يمنح نفسه وذويه ما لم يمنحه لآله وذويه.

وعمر الذي كان يقنع بالجيش الغليظ من المأكول والملبس، ويأبى أن يذوق في المجاعة مطعماً لا يسع جميع المسلمين إنما هو الخليفة الذي يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية، وقد وجد متهم من لأمه لأنه طرح كساءه وفيه فضل ملبس. فاتقاء هذا الحساب وما وراءه من حساب الله هو الذي توخاه خليفة النبي في معيشة أهله، مما يشبه تقشف النساك.

وعلى هذا كله كان أعلم الناس أن الطيبات حلال، وأن النهى عن الحلال تنطع في الدين يأباه الإسلام.

(١) أوعده: تستخدم في الشر، أما وعد فتكون في الخير. (٢) اللوثة: الحماسة.

كتب إليه أبو عبيدة أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها ووفرة خيراتها مخافة أن يخلد الجند إلى الراحة فلا ينتفع بهم بعدها في قتال، فأنكر عليه ذلك وأجابه: (إن الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات، فقال تعالى في كتابه العزيز "يأيتها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إني بما تعملون عليم". وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم وتريحون الأبدان النصبية^(١) في قتال من كفر بالله).

وحدث حذيفة بن اليمان أنه أقبل على الناس وبين أيديهم وبين أيديهم القصاع، فدعاه عمر إلى الطعام وعنده خبز غلظ وزيت! فقال حذيفة: أمنعتني أن أكل الخبز واللحم ودعوتني على هذا! إنما دعوتك على طعامي، فأما ذاك فطعام المسلمين.

فالمسلمين حل ما شاءوا من الطعام أما الرجل الذي يتفق من بيت المال فله ما يكفيه. والخرج كل الحرج عليه - وهو في عدل عمر وحزمه وجلده - أن يأخذ منه لا حاجة به إليه، وأنه ليزداد حرجًا على ما فيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله ويعلم كيف كان رسول الله يأكل في بيته وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله، ثم يصيب من هذا أو ذاك خيرًا مما أصاب الرسول.

وللولاة عنده مثل ما للمسلمين عامة من حق المتعة السائغة والنعمة التي ترضاها الرجولة، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما يتولاه، بل ربما لا مهم على التقدير كما كما يلومهم على الإسراف.

أنكر على عامله في اليمين حلالا مشهورة ودهونًا معطرة فعاد إليه العام الذي يليه أشعث مغبرًا عليه أطلاس^(٢): فقال: لا. ولا كل هذا. إن عاملنا

(١) النصبية: التي أصابها النصب، وهو التعب.

(٢) أطلاس: جمع أطلس وهو الثوب الوسخ.

ليس بالشعث ولا العافى^(١). كلوا واشربوا وادهنوا، إنكم ستعلمون الذى أكره من أمركم.

ومن تمام العلم بإسلام عمر أن نعلم فضل إسلامه مع من لم يكن من أهل الإسلام. فإن الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل فى باب السياسة القومية أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الإنسانية. وإنما يصبح حقاً جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه.

وعمر كان ولا ريب أشد المسلمين فى إسلامه.

فلو كان الإسلام ظالماً بطبيعته لمن لم يدخلوا فيه لكان عمر أشد المسلمين ظلماً لهم قسوة عليهم. لكنه كان فى الواقع أشد المسلمين رعاية لعهدهم منذ كان أشد المسلمين غيرة على دينه وعملاً بأدبه.

فكان شأنه مع من حاربوه شأن المحارب الشريف، ولن ينتظر محارب من محارب إلى آخر الزمان معاملة أقوم ولا أصدق من معاملة عمر لمحاربيه.

وكان شأنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفى بعهدهم ويخلص فى الوفاء به إخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه.

كتب للنصارى فى بيت المقدس أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسأهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن، وحن وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة فخرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده، وقال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا: هنا صلى عمر! ثم كتب كتاباً يوصى به المسلمين ألا يصلى أحد منهم على الدرجة إلا واحداً واحداً غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها.

(١) العافى: طلب المعروف، والشعث: الوسخ الجسد أو المتلبد شعر رأسه.

وكذلك كان يفعل فى كل موضع صلى فيه من الكنائس التى عاهد
النصارى على تركها وتحريم هدمها وسكنائها.

أما عهده لهم فقد كان مثالا من السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع
من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت.

فكتب لهم العهد الذى قال فيه: " .. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير
المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم
وصلباتهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا
ينتقض منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم، ولا
يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا تسكن بإيلياء معهم أحد من
اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما أهل المدائن، وأن يخرجوا منها
الروم واللصوت^(١)، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا
مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ..
ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم
وصلبهم^(٢) فإنهم آمنون وعلى بغيهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم .. " .

وليس لذى عهد من ظافر أن يطمع فى أمان أكرم من هذا الأمان.

وأنه قد كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا ينفع بها حتى
يشفعها بالوصاية للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة، وأن يوفى لهم
بعهدهم وينضح^(٣) عنهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم: كُتب بذلك إلى أبى عبيدة
كما كتب إلى غيره من الولاة وأوصى به فى وصيته قبل أن يموت.

وما شكا إليه مظلوم من أهل الذمة والياً كبير أو صغر إلا نصفه منه.

(١) اللصوت: اللصوص، مفردا لصت.

(٢) البيع: جمع بيعة وهى معبد النصارى، والصلب جمع صليب.

(٣) ينضح عنهم: يدافع عنهم.

بعث زياد بن حدير الأسدى على عشور^(١) العراق والشام. فمر عليه تغلبى نصرانى معه فرس قوموها بعشرين ألفا، فخبّره أن ينزل عن الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفا أو يمسكها ويعطى الألف ضريبة، فأعطاه التغلبى ألفا وأمسك فرسه. ثم مر عليه راجعا في سنته فطالبه بضريبة أخرى، فأنى وشكاه إلى عمر وقص عليه قصته، فما زاد على أن قال له: كفيت! ثم رجع التغلبى إلى زياد وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى، فوجد عمر قد كتب عليه: من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل! (٢).

وسمع أن بنى تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينارعههم، وأنهم أوغروا صدره فقال فيهم يتوعدهم:

إذا ما عصبت الرأس منى بمشوذ^(٣) فغيك منى تغلب ابنة وائل

فخشى أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم، فعزله، وأمر غيره.

ولعل حاكما من الحكام لا يرام منه أن يبلغ في البر بمخالفه في الدين مبلغا أكرم وأرق من إجراء الصدقة على فقرائهم، ولا سيما الحاكم الذى يدعو إلى دين جديد.

وقد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر وقال: ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم.

وقد جعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين. فمر فى أرض دمشق يقوم مجذمين^(٤) من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت.

(١) العشور: ضرب من الزكاة. (٢) من قابل: أى بعد عام.

(٣) المشوذ: العمامة.

(٤) مجذمين: مصابين بالجذام وهو مرض قد ينتهى بصاحبه إلى تآكل الاعضاء وسقوطها.

وإذا أحصيت له فى سيرته الطويلة وخطأ تحرم الذميين بعض الحريات أو بعض الحقوق فكن على يقين أنه قد صدر فى ذلك جمعيه عن حكمه توجيهها سياسة الدولة، وبقراها العقل والعرف كما يقرها الدين والكتاب، ولم يصدر فيه قط عن حيف مقصود أو عن رغبة فى حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقاً هم أحرار فيه.

ولعل الذى يحصى له من هذه الأوامر والخطط لا يعدو النهى عن استخدام بعض الذميين، ومنعهم أن يتشبهوا فى الأزياء والمظاهر بالمسلمين، وإجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية فى إبان الفتوح، والحذر من الكيد والتجسس والانتقاض.

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين فارجع إلى ما قاله فى ذلك تعلم أنه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكرهه الظلم والمحاباة. فقال: "إنى نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا"^(١).

وطلب يوماً من أبى موسى رجلاً ينظر فى حساب الحكومة فأتاه بنصرانى، فقال: "إنى سألتك رجلاً أشركه فى أمانتى فأتيت بمن يخالف دينه دينى. وقلما نهى عن استعمال اليهود والنصارى إلا ذكر بعدها: أنهم أهل رشا. ولا تحل فى دين الله الرشا.

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق، فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين فأبى، فأعتقه وأطلقه وقال له: اذهب حيث شئت!..

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب فى مهام الدولة إلا إشاراً للعدل وكرهه للرشوة والزيغ فى الحكومة، وما نظن أحداً ينكر أن استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر وأن يجتنب فيه مثل هذه الآفة. إذ

(١) الرشا: جمع رشوة.

يكثُر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول وهم غرباء عنها كارهون لمجدها وسلطانها أن ينظروا إلى منفعتهم قبل أن ينظروا إلى منفعتها وأن يساوموا على نفوذهم قبل أن يستحضروا الغيرة على سمعتها، والرغبة في خيرها وخير أهلها، ولا سيما في زمن كانت الدول تميز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان.

وما من أمة في عهدنا تبيح الوظائف العامة إلا بقيود وفروق متفق عليها: أولها تحريمها على الأجانب ما لم تكن في استخدامهم منفعة عامة.

وهذه هي سياسة عمر في مسألة الوظائف القومية، بغير إعانات للدولة ولا إعانات للرعية، وكفى باتقاء الإعانات أن العبد المملوك بخير في الوظيفة والإسلام فيأبى، فلا يصيبه من ذلك ضيم، ويطلق له زمامه يفعل ما يشاء.

أما نهيه عن تشبه الذميين بالمسلمين وكرهته أن يبدلوا أزياءهم التي ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لم كان أناس من الذميين يودون التشبه بالمسلمين في الزى والشارة؟ أكانوا يتشبهون بهم حبا لمذيبهم فهم إذن مسلمون لا يمنعهم مانع أن يجهروا بالإسلام. . أم يتشبهون بهم كيدا لهم ورغبة في التسلل بينهم والإفلات من عهودهم والتزاماتهم وما توجه الدولة عليهم في تلك العهود والالتزامات؟ . .

إن كانوا يفعلونه لهذا فلا لوم على عمر أن يأباه، وبخاصة في الزمن الذي كان المسلمون فيه جميعاً في حكم الجنود، وما من دولة أن نبیح أزياء جنودها لمن يشاء.

وأما إخراج بعض الذميين من الجزيرة فما خرج منهم أحد إلا وقد غدر بدمته وكرر الغدر مرة بعد مرة، كما صنع أهل خيبر.

ومنهم من أجلى عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلا عن نقضه العهد كما فعل أهل نجران.

فقد صالحهم النبي على أن يبقوا في مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به، وجاء أبو بكر فجدد الصلح على ذلك، ثم استخلف عمر فرجعوا إلى الربا وأفرطوا فيه، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم وأتوا عمر يسألونه إجلائهم. فاستحب هذا الجلاء.

على أنه لم يكن يأبى عل التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة ويؤدوا العشور. فلما كتب إليه المشركون من أهل منبج أن "دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا"^(١) شارو أصحاب النبي فأشاورا عليه بقبولهم. فدعاهم إليه.

ولا يفوتنا في هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الإجلاء التي لجأ إليها عمر وأيقن بصوابها وضرورتها. فأول الأمرين إن الجزيرة حرم الإسلام الذي كان يحيط به أعداؤه ويتدربصون به الدوائر ويشيرون الفتنة على أطرافه كما صنع الفرس بالعراق والروم والشام ولا أمان على حرم يسكنه أناس فيهم من غدر بأهله، بل فيهم من هؤلاء كثيرون.

وثاني الأمر أن عمر قد سوى بين الإسلام والنصرانية في هذه الخطة، فحفظ حرم النصرانية بيت المقدس للمسيحيين لا يسكنه معهم من لا يقبلونه، كما حفظ حرم الإسلام بالجزيرة العربية للمسلمين لا يسكنه معهم من يحذرون غدره.

وقد أحمل العوض حين ألجأته ضرورة الدولة إلى اتخاذ هذه الخطة، فاشتري بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأفظعهم النجرانية عنه الكوفة؛ وكتب لهم وصاة قال فيها: "هذا ما كتب له عمر أمير المؤمنين لأهل نجران. من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين. ومن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الأرض، فما اعتملوا"^(٢) من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله.

(١) تعشرنا: أى تدعنا تؤدى العشور.

(٢) اعتمل: اعتمل فلان، عمل لنفسه وتصرف في العمل.

ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من صنعهم - البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم".

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذى يختار بعده بالذميين كافة "أن يوفى بعدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم^(١).. ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات فى كل ما اتخذت من حيلة حرية أو حماية قومية أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية، وإن عذرها لدون عذر عمر فى خططه، إن أسبابها لدون أسبابه فى الإقناع.

كان مسلماً شديداً فى إسلامه، فلم تكن شدته فى إسلامه خطراً على الناس، بل كانت ضماناً لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمى ولا مشرك فى غير حدود الكتاب والسنة.

وكان جاهلياً فأسلم، فأصبح إسلامه طورا من أطوار التاريخ. ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة فى التاريخ الإنسانى لما كان إسلام رجل طورا من أطواره الكبار.

وكان هذا الرجل يجب ويكره كما يحب الناس ويكرهون، ولكن لا ينفعك عنده أن يحبك ولا يضررك عنده أن يكرهك إذا وجب الحق ووضح القضاء. قال يوماً لأبى مريم السلولى قاتل أخيه: والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح! فقال له أبو مريم: أتمنعنى لذلك حقاً؟ قال: لا.. قال: لا ضمير! إنما يأسى على الحب النساء.

وحسبك من إسلام يحمى الرجل من خليفة ييغضه وهو قادر عليه، فذلك المسلم الشديد فى دينه، والذى يشتد فيأمنه العدو والصديق.

(١) يقاتل من ورائهم: يحميهم.